بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظلّت تُسْدل حجب كثيفة من الغموض على تاريخ العرب قبل الإسلام إلا إشارات هنا وهناك فى القرآن الكريم والعهد القديم، وفى بعض النقوش المصرية والبابلية والآشورية، وعند المؤرخين والجغرافيين من اليونان والرومان، سوى ما كتبه مؤرخو العرب بعد الإسلام وتختلط به الأساطير اختلاطاً شديداً. وبذلك ظلّ تاريخ مملكة الثموديين التى نشأت شمالى الحجاز بمدائن صالح فى القرن الثامن قبل الميلاد مطموساً. ومثلها مملكة النبط التى نشأت ببطرا فى جنوبى الأردن منذ القرن الثانى السابق للميلاد، ومملكة اللّحيانيين التى نشأت فى العُلا شمالى مدائن صالح منذ القرن الأول السابق للميلاد. ولم يكن تاريخ اليمن أقل انطماساً وغموضاً من تاريخ هذه الممالك العربية فى الشمال الغربى للجزيرة، تشترك فى ذلك ممالكها: معين وسبأ وقتبان وحضر موت بجانب المملكة الحميرية التى نشأت فى القرن الأول للميلاد وتسمت مملكة سبأ وذى ريوان.

وبينما تاريخ هذه الممالك العربية فى الشمال والجنوب يحفه الغموض وتحفه الأساطير من كل جانب، حتى ليشبه حصوناً ضاعت مفاتيحها، إذا هو يقدر له علماء مستكشفون ومستشرقون يجدُّون فى جمع النقوش المدوَّنة المنثورة تذكارا على الأبراج والهياكل والقبور والنُّصب والأحجار، وكادوا لا يتركون حجراً ولا أثراً فى الشمال والجنوب إلا صوروا نقشه وما ارتسم عليه من الكلم. ووجدوا نقوشًا

وكتابات كثيرة فى الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصَّفا بالقرب من دمشق، ولم يكن للعرب الشماليين هناك مملكة ولا دولة. فسموا لغة تلك الكتابات والنقوش باسم اللغة الصفوية، وهى لا تعنى دولةً ولا قبيلةً معينة إنما تعنى الإقليم الذى اكتشفت فيه.

ولا نمضى طويلًا فى القرن الحاضر حتى يعثر المستشرقون والمستكشفون على ما لا يكاد يحصى من المفاتيح لدخول حصون تاريخ العرب قبل الإسلام وفك طلاسمه نهائيًا من حيث التاريخ الخالص لهذه الممالك وحياتها ونظمها وحضاراتها، ومن حيث لغاتها وخصائصها اللغوية، ومن حيث دياناتها وآلهتها وما اتصل بها من هياكل وأصنام وأوثان. ولا يزال هؤلاء المستشرقون والمستكشفون جادِّين - إلى اليوم - فى جمع النقوش العربية القديمة وخاصة فى اليمن، ولا يزالون ناشطين فى البحث والتنقيب. ومن زمن طويل تتجه الأنظار إلى الأستاذ العالم الجليل الدكتور خليل يحيى نامى كى يعرض فى كتاب عرضاً علميًّا تاريخ هذه الممالك ولغاتها ودياناتها؛ لسبب طبيعى، وهو أنه العالم الذى استخلصته جامعة القاهرة من بين خريجيها فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن، وهيأت لك كل سبيل ليصبح العالم المتخصص فى هذا التاريخ وما يتصل به من لغات وديانات، وقد مضى بعد تخرجه يكبُّ على اللغة النبطية وخطِّها وأخواتها الشمالية، ولم تلبث الجامعة أن اختارته عضواً فى بعثة علمية إلى اليمن سنة ١٩٣٦ وأتيح لهذه البعثة أن تجمع واحداً وتسعين نقشاً ترجمها وعلق عليها واتخذها موضوعًا لرسالة الدكتوراه سنة ١٩٣٩ ونشرها سنة ١٩٤٣.

ومنذ سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٦٢ أخذ ينشر فى مجلة كلية الآداب نقوشاً عربيةً جنوبية يترجمها إلى العربية ويعلق عليها تعليقات علمية وقد بلغت نحو مائة وخمسين نقشاً. والأستاذ الدكتور نامى لا يتعمق فى العلم بتاريخ ممالك العرب

القديمة ولغاتها ودياناتها فحسب ـ كما يتضح من المراجع الكثيرة لنقوشها التى يضعها بين يدى حديثه عنها ـ بل أيضا يمتاز بأنه أحد العلماء المعاصرين المكتشفين لنقوش جنوبية كثيرة والدارسين لها وقد ظلّ سنوات طويلة يحاضر الطلاب فى قسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة فى كل جوانبها التاريخية واللغوية والدينية

نحن إذن فى هذا الكتاب الفريد: العرب قبل الإسلام تاريخاً ولغةً وديناً بإزاء عمل علمى نهض به عالم جليل أتقن العلم بذلك كله فهماً وفقهاً وتحليلاً بصيراً، وقد استهلّه بالحديث عن الأقسام الجغرافية للجزيرة العربية فى تصور القدماء من اليونان والرومان وفى تصور العرب السابقين والمعاصرين، ومضى بعد ذلك يؤرخ للنبط فى بطرا وتحولهم من الرعى إلى الزراعة فالتجارة وتأسيسهم لمملكة ديمقراطية سنة ١٦٩ قبل الميلاد مع بيان ملوكهم ومدد حكمهم إلى أن قضى الرومان على ملكهم سنة ١٠٦ للميلاد، وأفاض فى الحديث عن لغتهم مبيناً قربها الشديد من الفصحى بما كان فيها من إعراب ومنع للصرف واستخدام لأداة التعريف: أل فى الأسماء. ويتحدث عن تاريخ ثمود مع بيان مفصّل عن مجموعات نقوشهم المنثورة ومكتشفيها وكيف أن منها ما يصعد إلى القرن الثامن قبل الميلاد ومنها ما ينحدر إلى القرن الثالث للميلاد، ويفصّل القول فى خصائص لغتهم وبيان أنها تقترب من الفصحى. ويعرض النقوش والكتابات الصفوية مبيّناً خصائصها اللغوية وكيف أنها تتقدم عن لغة الثموديين خطوات نحو الفصحى. ويتحدث عن النقوش اللِّحْيانية ومكتشفيها ومجموعاتهم المنثورة ومملكتى لحيان وملوكها ولغتهم وخصائصها واقترابها من الفصحى. وكل هذه الممالك العربية القديمة كانت ممالك تجارته لوقوعها على أبواب آسياد فى مفترق طرق العالم، فكانت تمرُّ بها القوافل ـ وتشارك فيها ـ محمَّلةً بعروض اليمن والمحيط الهندى

وعروض الرافدين وإيران، وتعود محمَّلة بعروض مصر والشام والبحر المتوسط، مما جعل أهل هذه الممالك ـ بحق ـ تجاراً دوليين.

وينتقل الأستاذ الدكتور خليل نامى من هذه الممالك العربية الشمالية إلى الممالك العربية الجنوبية، ويفصّل الحديث فى نقوشها التى اكتشفها الرحالون والمستشرقون والتى شارك بنصيب غير قليل فى اكتشافها، ويصور الجهود العلمية الخصبة التى بذلتها البعوث الغربية؛ أوربية وأمريكية حتى الستينيات من هذا القرن، ويذكر نحو عشرين حدثاً مهما تؤرخ لممالك المعينيين والسبئيين والحضرميين، وأيضاً لأحدث تلك الممالك: مملكة سبأ وذى ريوان أو المملكة الحميرية منذ القرن الأول للميلاد. ويذكر لمملكة سبأ العتيقة المغرقة فى التقدم عشرين مكرِّبا أو ملكا من القرن التاسع حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. ويعرض طائفةً من أخبار مملكة سبأ وذى ريوان المتأخرة وسدّ مأرب وانهياره واستيلاء الحبشة على اليمن فى القرن السادس للميلاد ثم استيلاء الفرس عليها إلى أن دخلت فى دين الله. ويتحدث عن اليمن فى القرآن الكريم مبيّناً أنه أشار إلى أربعة عصور: عصر مملكة سبأ القديمة لزمن النبى سليمان وما كان من إرسال ملكتها بهدية إليه ثم زيارتها للقدس، وكانت الزراعة حينئذ فى دهره فى مأرب (جنتان عن يمين وشمال). والعصر الثانى عصر تُبَّع وقومه الحميريين أصحاب مملكة سبأ وذى رَيْوان. والعصر الثالث عصر أصحاب الأُخْدود من نصارى نَجْران الذين مثَّل بهم الملك الحميرى ذو نواس، وكان قد تهوَّد، فحرَّقهم فى أُخْدود أضرم فيه نارًا ذات لهب شديد أتت عليهم. والعصر الرابع عصر أصحاب الفيل لعهد أبرهة حاكم اليمن الحبشى الذى غزا مكة بجيش ضخم فحاق به وبال لا يماثله وبال. ويفيض الدكتور نامى فى بيان لغات الممالك اليمنية إفاضة العالم المتبحر الذى فقه أوضح فقه خصائصها ودقائقها فى الحروف ومخارجها وفى أبنية الاسم

والفعل والإفراد والجمع والتذكير والتأنيث والضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والظروف، مع مقارنات دقيقة بين اللغات اليمنية القديمة.

ويعرض الدكتور نامى آلهة كلّ هذه الممالك الشمالية والجنوبية بادئاً بآلهة النبط، ومن آلهتهم ذو الشَّرى واللات، ومن آلهة الثموديين ملك وإيل وإله أو الله، ويتكرر عند الصفويين اسم اللات، ومن آلهة اللحيانيين العُزَّى وبعل وإيل واللات ومناة ووَدّ، ومن آلهة سبأ تألب وبعل وإلمقه وأم عثتر (الزهرة) والشمس، ومن آلهة المعينيين والقتبانيين والحضرميين وَدّ وهو يرمز للقمر ونسر وعثتر والشمس. وينتهى الكتاب بالحديث عن هياكل الآلهة

والكتاب ـ بحق ـ عمل علمى فَذّ، فقد ظلّ الأستاذ الدكتور خليل يحيى نامى عشرات السنين عاكفًا على موضوعاته، منفقاً فيها جهوداً شاقةً، واصلاً كلال الليل بكلال النهار، يدرس ويمحّص ويقارن ويصحّح ويراجع بحوث المستشرقين من سابقيه ومعاصريه، وهو فى أثناء ذلك كله يحاضر طلابه، لا تفتر همته ولا تكلّ عزيمته. وما زال يعاود البحث ويعدِّل وينقّح ويهذّب حتى استقامت له هذه الصورة لتاريخ العرب قبل الإسلام ولغاتهم وديانـاتهم، وهى صورة اتخذ لها كل ما يستطيع من أسباب لتصبح نقيّةً مصفّاةً خاليةً من كلّ تعقيد يشوِّش الفهم أو يفسده، وإنها لجديرة بكل شكر وكل ثناء.

شوقى ضيف

تمهيد

أقسام الجزيرة العربية

١ - قسم جغرافيو المسلمين الجزيرة العربية خمسة أقسام هى:

(ا) تهامة (ب) الحجاز

(جـ) نجد (د) العروض

(هـ) اليمن.

٢ - وقسمها جغرافيو اليمن قسمين هما: يمن وشأم، كما روى ذلك أبو محمد الحسن الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب، حيث قال فى ص ٥٠ ما يلى:

«وهى عند أهل اليمن يمن وشأم فجنوبها اليمن وشمالها الشأم».

٣ - وقسمها الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه مهد العرب ثلاثة أقسام هى: الشمال ويقع بين شاطئ مدين ورأس الخليج الفارسى، والقسم الثانى هو الوسط ويشمل الحجاز ونجد والأحساء، والقسم الثالث هو الجنوب ويشمل هضبة عسير واليمن فى الغرب، والجبل الأخضر فى بلدة عمان فى الشرق.

٤ - وقسمها اليونان والرومان ثلاثة أقسام هى:

(ا) القسم الأول وهو العربية الصحراوية، وكان يطلق على البادية أو الصحراء الواسعة الفاصلة بين العراق والشأم، وهى المعروفة باسم بادية الشأم،

وفهم ديودوروس من هذا التقسيم أنها تسمى المناطق الصحراوية التى كانت تسكنها القبائل البدوية، وتقع فى شمال العربية الصحراوية وفى شمالها الغربى أرض مملكة تدمر.

(ب) القسم الثانى وهو العربية الحجرية، وكان يطلق هذا القسم على شبه جزيرة سيناء. وبلاد النبط الذين كانوا يسكنون فى الأراضى الجبلية، وفى المرتفعات المتصلة بها الواقعة فى شرق البحر الميت، وفى شرق وادى العربة وفى جنوب اليهودية حتى الخليج العربى المعروف باسم خليج العقبة، ولما سقطت مملكة النبط سنة ١٠٥ م ضمها الرومان إلى المقاطعة العربية الرومانية المعروفة باسم الولاية العربية، والظاهر من كلام ديودوروس أنها كانت فى شرق بلاد مصر وجنوب البحر الميت وفى شمال العربية السعيدة وفى غربها.

(جـ) والقسم الثالث هو العربية السعيدة، وكانت أكبر الأقسام الثلاثة رقعةً إذ كانت تشمل كل المناطق التى تعرف باسم شبه الجزيرة العربية، أو بمعنى آخر كانت تشمل شمال الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها.

٢ – وما سبق أن ذكرناه لكم هو أهم الآراء التى قيلت قديماً وحديثاً فى تقسيم الجزيرة العربية، ونتكلم الآن بشىء من الإيجاز عن الأقسام الخمسة التى تتكون منها الجزيرة العربية على حسب أقوال جغرافيى المسلمين لكى نفهم فى ضوء ذلك طبيعة الجزيرة العربية وتكوينها الجغرافى.

(ا) القسم الأول هو تهامة، وهى عبارة عن المنطقة الضيقة الساحلية الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر، وهو المعروف فى الكتب العربية باسم بحر القلزم، وكان العرب يطلقون على هذه المنطقة اسم بلاد الغور أو غور تهامة.

وتقع تهامة غرب جبل السراة الممتد من اليمن فى الجنوب حتى أطراف بادية

الشام فى الشمال، وتضاف لفظة تهامة إلى اسم القسم الذى تحاذيه، فيقال تهامة الحجاز، وتهامة عسير، وتهامة اليمن. وليست التهائم فى الحقيقة مقصورة على المناطق الساحلية فحسب، بل تشمل معظم المناطق الممتدة إلى الساحل حتى المنحدر الغربى لسفوح جبال السراة، وتضيق هذه المناطق الساحلية وتتسع فى مناطق معروفة لدى الجغرافيين.

وأكثر هذه المناطق الساحلية رملىّ شديد الحرارة قليل الإنبات، كما أن كلّ المدن الساحليه تقع فى هذه المناطق، وهى مراسى السفن مثل جدة وينبع فى الحجاز والحديدة والمخا فى بلاد اليمن. وتوجد على محازاة المنطقة الساحلية هضبات ونجود تتصل بها مباشرةً، وتقع مكة المكرمة فى هذه المنطقة كما تقع فيها أيضاً مدينتا زبيد وبيت الفقيه فى بلاد اليمن.

٢ – والقسم الثانى من الجزيرة العربية هو الحجاز، وهو عبارة عن المنطقة الجبلية المرتفعة الممتدة من شمال مدين إلى حدود اليمن، وقد عدّ فريق من العلماء تبوك وأرض فلسطين من الحجاز.

ويقال للقسم الشمالى من الحجاز أرض مدين وحسمى، واختلف الجغرافيون فى حسمى فقال بعضهم إنها من أرض الحجاز، وقال بعضهم الآخر إنها من بادية الشام، وتطلق حسمى على سلسلة من جبال تتجه من الشمال إلى الجنوب، وتتخللها أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة، وأرض بنى عذرة من ظهر حرة نهيل من جهة أخرى، وكانت تسكن حسمى فى الجاهلية قبائل جذام ويسكنها الآن عرب الحويطات، ويعتقد المستشرقون أنهم من بقايا النبط.

وتتخلل الحجاز أودية عديدة أهمها وادى القرى، وهو واد مشهور يقع بين العلا والمدينة المنورة، وكان يمر به طريق القوافل القديم، ويلتقى به واد آخر هو

وادى الثيل أو وادى السلسلة، وقد كان هذا الوادى عامراً وتكثر فيه المياه، وقد وجدت فيه كتابات لحيانية ومعينية وسبئية.

ومن أهم أماكن وادى القرى مدينة العلا، وهى التى نزلها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو فى طريقه إلى تبوك، وتقع العلا فى موضع ديدان القديم المذكور فى التوراة، كما تقع فيه أيضًا مدينة قرح التى كانت من أسواق العرب فى الجاهلية، وهى التى كان فيها هلاك عاد قوم النبى هود عليه السلام، وذلك كما قال بعض الرواة العرب، وكانت قبيلة بلىّ تسكن هذه المدينة المقامة على ملتقى العلا القديمة.

ووجد الباحثون فى وادى القرى كثيرًا من الكتابات العربية الجنوبية القديمة والعربية الجاهلية. ويتصل طريق القوافل وطريق الحج بمدينة بطرا أو سلع بشرق الأردن، ومنها تتفرع عدة طرق تتجه إلى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء، أو إلى بلاد الشام أو إلى بلاد العراق. ويصب وادى الحرض جنوب قرية الوجه، وهى قرية صغيرة فى الوقت الحاضر ويرى بعض المستشرقين أنها كانت ميناء مدينة الحجر، وهى المعروفة الآن باسم مدائن صالح أو قرى صالح أو عدال وكانت الحجر مسكن ثمود الذين أرسل إليهم النبى صالح، وتوجد فيها مساكن عظيمة منحوتة فى الصخر، وبالقرب منها عين ماء. وإلى جنوب الوجه تقع مدينة الحوراء، وهو الاسم القديم لمدينة Leuke Kome التى أنشأها اليونان على ساحل البحر الأحمر لحماية السفن المصرية من غزو الدول، كما كانت مرفأ سفن مصر المتجهة إلى المدينة. ومن مدينة الحوراء ابتدأ اليوس جالوس القائد الرومانى يسير جيوشه سنة ٢٥ ق .م. لغزو بلاد اليمن، وهى الغزوة المشهورة التى حدثنا عنها استرابون المؤرخ اليونانى، وقد انتهت هذه الغزوة بالإخفاق، وسوف نتحدث عن هذه الغزوة فيما بعد بشىء من التفصيل وذلك عند كلامنا عن علاقة بلاد العرب ببلاد اليونان والرومان.

وتقع يثرب أو المدينة فى أرض بركانية بين حرتين فى شمال جبل أحد، ووادى القيق من أودية المدينة، وهو من أخصب الأودية وأجملها، وفيه قصور ومنازل وقرى. وبطحان من أودية يثرب أو المدينة، وكانت مسكن بنى النضير وهم من اليهود.

وتقع فى الحجاز الطائف، وهى على بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مكة، وهى على ظهر جبل غزوان وقد عثر فى الطائف على نقوش ثمودية، وأكثر سكان الطائف عند ظهور الإسلام كانوا من ثقيف.

٣ – والقسم الثالث من الجزيرة العربية هو نجد، وهو عبارة عن الهضبة التى تقع فى وسط جزيرة العرب، وتتخلل هذه الهضبة أودية وتلال ترتفع عن سطحها بضع مئات من الأقدام، وأعلى أراضيها أرض نجد الغربية المحاذية للحجاز، ثم تأخذ هذه الهضبة فى الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بأرض العروض. وكانت نجد حتى القرن السادس الميلادى ذات أشجار وغابات وبخاصة المنطقة الواقعة جنوب وادى الرمة.

وتقع شمال نجد أرض طيئ، ويفصل بينها وبين صحراء النفود جبلا أجا وسلمى، وكانت صحراء النفود تعرف فى القديم باسم الدهناء، وكذلك باسم رملة عالج، وغلب عليها اسم النفود بعد ذلك فصارت تعرف به حتى اليوم.

(د) والقسم الرابع من الجزيرة العربية هو العروض، والعروض كما قال ابن الكلبى: بلاد اليمامة والبحرين، وما والاها العروض وفيها نجد وغور لقربها من البحر، وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها، والعروض يجمع ذلك كله.

وكانت اليمامة تعرف فى القديم باسم جو، وقاعدتها حجر، وهى واقعة فى وسط بلاد العرب، وقد عرفت اليمامة بأنها موطن طسم وجديس العمالقة.

وقد وجدت نقوش سبئية متأخرة فى بعض أجزاء من اليمامة. واليمامة بلدة زرقاء اليمامة المشهورة فى الكتب العربية، والتى يقال إنها كانت تبصر على مسافة ثلاث مراحل. وتقع مدينة الرياض عاصمة المملكة السعودية فى اليمامة.

والبحرين هى المنطقة الممتدة من البصرة إلى عمان، وتشمل الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر، وكانت الأحساء تعرف فى القديم باسم البحرين، والقسم الأكبر من الأحساء هو عبارة عن سهل صحراوى مرتفع عن ساحل البحر فى الجهة الغربية.

(هـ) والقسم الخامس من الجزيرة العربية هو بلاد اليمن، وهو القسم الجنوبى من الجزيرة وفيه نجود وتهائم، وقد سبق أن قلنا: إن لفظة تهامة تضاف إلى الإقليم الذى تحاذيه، فنجد تهامة عسير، وهى تابعة الآن للمملكة العربية السعودية، كما نجد أيضاً تهامة اليمن، وهى عبارة عن سهل خصب تنحدر إليه أودية من الجبال الموازية للساحل، وهذه الجبال هى عبارة عن امتداد لجبال السراة الممتدة فى الجزيرة العربية من شمال الحجاز إلى مكان فى الجنوب يبعد عن شمال عدن بخمسين ميلاً، ووراء هذه الجبال هضب ينحدر الهوينى نحو الشمال الشرقى إلى أن ينتهى إلى رمال الدهناء أو إلى نجد.

وتوجد بين منحدرات جبال الهضبة والصحراء سهول تعرف باسم سهول المشرق وهى ممتدة من جنوب نجران حتى شمال حضرموت، وقد كانت هذه السهول منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى مركز الحضارة والثقافة والرقى والعمران فى جنوب بلاد العرب.

وتشمل اليمن أيضاً حضرموت الواقعة شرق ما يعرف الآن باسم اليمن على ساحل بحر العرب حتى الربع الخالى فى الشمال، وتنتهى عند بلدة سيحوت فى

الشرق حيث تبدأ سواحل مهرة التى تعرف عند الجغرافيين العرب باسم الشحر. ويطلق الشحر الآن على الميناء الغربى لبلاد مهرة.

ويطلق بعض المستشرقين على الإقليم الممتد من سيحوت إلى عمان اسم منطقة ظفار وذلك إلى ميناء صغير على ساحل بحر العرب يعرف بهذا الاسم، وظفار هذه هى غير ظفار اليمن التى قيل فيها من دخل ظفار حمر أو تحمر أى من دخل ظفار وجب عليه أن يعرف الحميرية ويتكلم بها.

ومنطقة ظفار هى عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ما يقرب من ثلاثة آلاف قدم، وتنمو فوق جبالها أشجار اللبان أو الكندر الذى يستعمل فى المعابد والهياكل، وقد اشتهرت به جنوب بلاد العرب قبل الإسلام، وكانت القوافل العربية تحمله مع أنواع الطيوب الأخرى، وكذلك حاصلات الهند والعروض من الجنوب إلى شمال الحجاز فبلاد الشام فالعراق فآسيا الصغرى فأوربا.

ويشمل هذا القسم أيضاً أرض عمان التى تتألف من أماكن جبلية وهضاب متموجة وسهول ساحلية.

وبهذا القول نكون قد تكلمنا بشىء من الإيجاز عن الأقسام الخمسة التى تتكون منها الجزيرة العربية على حسب أقوال جغرافيى المسلمين.